

الباب الأول: خلق آدم وحواء وذريتهما

الباب الأول

خلق آدم وحواء وذريتهما

الباب الأول:

خلق آدم وحواء وذريتهما

أراد الله عز وجل تعمير الكون الذي خلقه لحكمة يعلمها سبحانه. وعمارة الكون تكون بخلق الحياة في سمائه وأرضه وفيما بينهما. ففي السماء تكون الملائكة وسائر الكائنات العلوية. وفي الأرض بكل ما فيها من ظواهر لا بد من تواجد آدم وحواء وذريتهما.

* * *

الفصل الأول:

التمهيد لخلق آدم وحواء - عليهما السلام - وذريتهما من

بعدهما

لقد مهد الله لخلق آدم وحواء - وهما أبوا البشرية - بخلق ما يلزمهما من عناصر البيئة التي يعيشان فيها، وذريتهما من بعدهما، وما يتصل بهذه البيئة وعناصرها من أمور تسهل عليهم جميعا البقاء في الأرض، إلى أن يرثها الله ومن عليها. وذلك مع استثناء الفترة التي عاش فيها آدم وحواء - عليهما السلام - في الجنة، وما فيها من اختلاف في الرأي بين العلماء. فقد كانت فترة خاصة، لمهمة خاصة أراد الله عز وجل تنفيذها على يد آدم وحواء - عليهما السلام - وقد وضحت تلك المهمة الخاصة من خلال منهج رباني يشمل مجموعة من الأوامر والنواهي، يلتزم بها آدم وحواء في تلك الجنة، فيثابان على الطاعة، ويعاقبان على المعصية. وبهذا فقد أراد الله تعالى أن يدرب آدم وحواء - عليهما السلام - تدريبا عمليا، يباشران فيه واقع التجربة قبل أن يهبطا إلى الأرض ليزاولا

مهمتهما (1). ومن هنا كانت تلك الفترة الخاصة فترة تربية وإعداد لآدم وحواء حتى يستطيعا وذريتهما بعد ذلك العيش على وجه الأرض بإرادتهم الممنوحة لهم يتخيرون بها طريقة حياتهم خيرا أو شرا، فيكونون مسؤولين عن اختيارهم وبالتالي يحاسبون عليه. وعندما أمر الله جلّت قدرته آدم وحواء بالسكن في تلك الجنة حذرهما من طاعة إبليس اللعين الذي طرده الله منها ومن رحمته عز وجل؛ لعصيانه لربه العظيم بعدم السجود لآدم. فقد صار هذا الإبليس عدوا مبينا لآدم وزوجه وذريتهما يجب أن يحذروا منه في كل الأحوال..

أما عن عناصر البيئة اللازمة للأبوين - آدم وحواء - وذريتهما حتى يعمر الكون، طبقا لمشيئته وقدرته وعلمه سبحانه - فقد تحدث عنها القرآن الكريم ببعض التفصيل. وذلك في قول الله العزيز الحكيم: ﴿قُلْ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْكَافِرُونَ﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {

[فصلت: ٩ - ١٢]. فقد أمر ربنا العظيم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الناس بإنكار الخالق جل وعلا سلوك بعض بنى آدم لطريق الكفر والإشراك به عز وجل، عن عمد مع أنه جلّت قدرته سخر لهم مخلوقاته النافعة؛ كالأرض بما فيها من خيرات ظاهرة وباطنة، مباركة منه سبحانه، والجبال الراسيات التي تحفظ توازن

(1) ص173 من كتاب "الإنسان في القرآن الكريم" للأستاذ الدكتور السعيد عاشور. أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية بكلية الهندسة، جامعة المنصورة. الطبعة الأولى يونيو عام 1998م.

الأرض حتى لا تמיד أو تضطرب بكل ما فيها وما عليها، والسماء بما فيها من ظواهر ومخلوقات لازمة وملازمة لهم، وكذلك النجوم والكواكب المعلقة بين السماء والأرض بما فيها من فوائد جليلة. وكل ذلك يلزم آدم وحواء وذريتهما. ويعينهم جميعا على البقاء في الأرض سعداء، واستعمارها إلى أن يأذن الله تعالى للدنيا بالفناء.

وعن هذه العناصر أيضا تحدثت السنة النبوية الكريمة. ففي مسند الإمام أحمد رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **خلق الله التربة يوم السبت. وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين. وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل — (1).**

ومن المعروف أن السماوات والأرضين كانت ملتصقة تبدو وكأنها شيء واحد. ففرق بينها الله عز وجل بحكمته حتى يستفيد الخلق وعلى رأسهم آدم عليه السلام وذريته من بعده من كل سماء وأرض. فقد تفتقت السماء بأمر خالقها الكريم، فنزل منها المطر. وتفتقت الأرض بأمر ربها سبحانه، فخرج منها النبات. وخرجت منها بعد ذلك وتخرج إلى الآن معادن أخرى يستفيد منها بنو آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ويقول العزيز العليم سبحانه في ذلك: **{أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُم مِّنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** [الأنبياء: ٣٠].. قال الحسن وقتادة: " كانت السماء والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء "

(1) رواه أحمد في مسنده ص 72 حرف الخاء من كتاب مختار الأحاديث النبوية للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.

(1). وقال ابن عباس: " كانت السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت. ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات " (2). وقد رفع الله السماء حيث هي وأقر الأرض كما هي. وكل هذا ليستفيد خلق الله وأولهم آدم وذريته. وجعل ربنا سبحانه الماء أصلا لكل الأحياء، وسببا لحياة الإنسان والحيوان والنبات. فلا يجوز بعد كل هذا أن يشرك آدمي بربه عز وجل (3).. ومن المشاهد أيضا أن إنقاص ديار الكفر، وزيادة ديار الإسلام جزء هام من تهيو الأرض والسماء ليعيش الإنس والجن عليها. وتلك سنة الله في خلقه، يقول فيها سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (الرعد: ٤١). ويقول جل جلاله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ} (غافر: ٥١)...

ولما كانت السماوات مليئة بالملائكة الذين خلقهم الله عز وجل، خاضعين له مطيعين لأمره {لَا يَسْقُوتُ بِهِ الْقَوْلُ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٧] كان يحلو للبعض في الجاهلية أن يزعموا أن الملائكة تُعبد

من دون الله. فأبطل الله جل جلاله قولهم، وبين أن الملائكة من خلق الله تبارك وتعالى، وهم أضعف من أن يُعبدوا. فقال أصدق القائلين سبحانه: {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ

- (1) القرطبي 283/11. يتصرف من ص 10 من القسم السابع عشر من الطبعة الأولى من كتاب صفة التفسير للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.
- (2) زاد المسير 348/5. وارجع إلى نفس الصفحة من كتاب المرحوم الشيخ محمد على الصابوني.
- (3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ { [سبا: ٢٢ - ٢٣] (1) .. وفي قرة العيون أن هاتين الآيتين تقطع عروق الشرك بأمور أربعة (2): فهم (أى الملائكة وغيرهم) لا يملكون مثقال ذرة مع الله جل وعلا في السماوات ولا في الأرض، وليس لهم مشاركة في خلق السماوات والأرض معه سبحانه، وليس لله جل ثناؤه منهم معين، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له عز جابه. فالملائكة الذين قال عنهم بعض المشركين إنهم يُعبدون من دون الله - تأخذهم رعدة شديدة وربما صعقة إذا سمعوا كلام الله عز وجل. فكيف يعبدهم غيرهم؟!

واستكمالاً لاستعداد السماء لخلق آدم عليه السلام وإعمار ذريته للأرض كما أراد الله رب العالمين - خلق ربنا الخلاق العليم النجوم مسخرات في جو السماء. ويقول خالقها العظيم سبحانه مبيناً بعض فوائدها التي خلقت من أجلها: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾} [الملك: ٥] (3). ويقول المولى جل شأنه: {وَعَلَّمْنَا وَابْتَغَيْنَا دُونََ ﴿١٦﴾} [النحل: ١٦]. ويقول تبارك وتعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾} [الصافات: ٦ - ١٠] (4). فمن فوائد النجوم أنها زينة ربانية للسماء الدنيا. وأنها يهتدى بها البشر لتحديد طرق السير في غابات الصحراء، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(1) ظهير: معين ومساعد.

(2) ص 205 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(3) رجوما: قذائف يقذفون بها

(4) مارد: متمرد - دحورا: مهزومين مطرودين عن السماع. واصب: موصول.

يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ [الأنعام: ٩٧]. والفائدة الكبرى لها أنها تحفظ الملائكة الأعلى من اقتراب وتنصت مرده الشياطين. إذ يسلطها الله تعالى في الوقت المناسب على مرده الجن لمنعهم من الاقتراب والاستماع والتنصت إلى الملائكة الأعلى.. ويحدث ذلك من وقت أن أفسد الجن في الأرض، فبعث الله الكبير المتعال إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم، وأجلوهم إلى جزائر البحار. وكان إبليس ممن أُسِرَ فأخذوه معهم إلى السماء. فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه⁽¹⁾.. وطُرد إبليس من الجنة وأهبط إلى الأرض. ومن الطبيعي أن يحاول هو وفريقه من مرده الشياطين التنصت إلى الملائكة الأعلى، ليفسد على آدم سعادته في الجنة، ثم في الأرض بعد ذلك هو وذريته إلى اليوم المعلوم.. لكن الله جلّت قدرته أعد لإبليس وأعوانه من الجن والإنس نوعا من النجوم ترجمهم فلا يستطيعون السماع.. قال الإمام أحمد رضى الله عنه: حدثنا محمد ابن جعفر وعبد الرزاق قالوا: حدثنا معمر، أخبرنا الزهري عن علي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في نفر من أصحابه. قال عبد الرزاق (من الأنصار): قُرْمَى بنجم فاستنار، فقال صلى الله عليه وسلم: ٭ ما كنتم تقولون إن كان مثل هذا في الجاهلية؟ — قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم. قلت: للزهري: أكان يرمى بهذا في الجاهلية؟ قال: نعم لقد غُلْظَتْ مِنْ بَعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ٭ فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته. لكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سَبَّحَ حملة العرش ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش

(1) ص 10 و 11 بتصرف واختصار من كتاب قصص الأنبياء لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيُرمَوْنَ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق لكنهم يقرفون ويزيدون — (1) ..

وعن قتادة: أن هذا كان بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه السلام (2) .. وعنده أن هذا القول هو أولى الأقوال بالقبول .. وعلى كلتا الروايتين فقد ازداد هذا الأمر وغلظ بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو ما سيتبين بعد قليل ..

أما ما ورد في صحيح البخارى عن هذا الأمر فهو أكثر توضيحاً .. فقد روى البخارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ♂ إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، يَنْقُذُهُمْ ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلى الكبير، فيسمعها مسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت في السماء — (3) ..

(1) ص503 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم لابن كثير - يقرفون: يكذبون.

(2) ص504 من نفس المرجع السابق.

(3) من ص207 إلى ص210 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد المجيد بن حسن آل الشيخ.

صفوان: حجر أملس - ينقذهم: يسيطر عليهم - فزع عن قلوبهم: سرى عنها مما هم فيه

وهكذا كان ربنا عز وجل ولا يزال وسيظل لهؤلاء المردة بالمرصاد. فهو سبحانه يسلط عليهم الشهب وربما أدرك الشهاب مارداً الجن قبل أن يلقي بالكلمة التي سرقها بسمعه إلى الكاهن فيقصمه فلا يحقق هدفه. وربما أدركه بعد أن يليقها.. وهى كلمة بسيطة لكن الشيطان يزيد عليها الكثير من الكذب فإذا اعترض عليه أحد قال: ألم يكن قد قال لنا يوم كذا، كذا وكذا. فيصدق بهذه الكلمة رغم كذبه فــــــــــــــــــــــي بقية

ما أبلغ به.. ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعاً من الركون إلى هؤلاء الكهنة الذين يأخذون عن الجن فيصدقونهم فيما يزيدونه افتراء على الله وإيهاماً بأنهم يعلمون الغيب.. ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى..

وقد ازدادت مسألة رمى الجن بالشهب حدة وغلظة حتى لا يسترقوا السمع منذ تكليف الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين.

وقد استغربت الجن هذا الأمر حتى أنهم اهتموا به وأرادوا معرفة سببه فبعثوا أعوانهم في كل مكان حتى وصلوا مكان مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهناك عرفوا سبب زيادة وضراوة تلك الشهب وامتلاء السماء بالحرس الإلهي من الملائكة. فعرفوا أن السبب في ذلك هو ميلاد صاحب الرسالة الخالدة محمد صلى الله عليه وسلم فعبروا عن خيبة أملهم في الاستماع والتصنت. ويظهر ذلك من قول الله جل وعلا واصفا حالهم: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا} (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ

يَسْمِعُ الْآنَ يَحْدِلُهُ شَهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٨ - ٩] (١) .. وهكذا تحداهم الله الخالق العظيم، القادر على كل شيء والذى أمره بين الكاف والنون. وتحدى معهم مرده الإنس، الذين يأخذون عنهم أكاذيبهم وافتراءاتهم. فقال تبارك وتعالى: {يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} (٣٣) فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ} (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ} (٣٥) [الرحمن: ٣٣ - ٣٥] (٢) ...

وهكذا اكتملت الاستعدادات في السماء كما اكتملت في الأرض إيدانا بخلق آدم عليه السلام. وانتشار ذريته في الأرض لتعميرها كما أراد الحق تبارك وتعالى. ووجه الإله الخالق الرازق العظيم، ورب العرش الكريم إلى بنى آدم النداء السارى منذ خلق آدم إلى يوم القيامة. فأمر رسله الكرام أن يخبروهم بوجوب العمل الصالح في الدنيا

من أجل السعادة في الدارين. وكان آخر هؤلاء الرسل الكرام محمدا صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه ربه وأمره أن يخبر بنى آدم بذلك.

فقال سبحانه وتعالى: {وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ وَالشَّهَادَةُ قِيْدُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]. وقد حكم عالم الغيب والشهادة سبحانه في بنى آدم حكما عادلا يطبق على الجميع بلا استثناء. فالكل ينال جزاء ما عمل في دنياه. إن خيرا فخير وإن شرا فشر. فذلك هو يوم القيامة الذي قال عنه رب العالمين: {يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) الجن ٨، ٩ - شهاب: حفر وشهب وهى النجوم المحرقة المقذوفة على مرده الجن - رسدا: تنتظرهم وتترصد لهم لتقذفهم إذا حاولوا التصنت.

(٢) أقطار: جوانب - سلطان: غلبة وقهر - شواظ: لهب لا دخان له - ونحاس: النحاس المذاب بعد الغليان.

ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرَهُ، ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، { [الزلزلة: ٦ - ٨] } (1).

* * *

(1) يصدر الناس أشناتاً: ينصرفون من قبورهم بعد إحيائهم متفرقين.